٦٣ سنة على رحيله

رشيد القندرجي

صوت غنائي فريد

اذا اريد تحديد الدور الذي لعبه مقرىء المقامات المرحوم رشيد القندرجي (١٨٨٦-١٩٤٥) في الحياة الفنية البغدادية خلال العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن فان اصح تعبير يمكن ان يقال عنه انه كان مدرسة متميزة في المقام العراقي بل صائغاً بارعاً ادخل تحسينات كثيرة عليه سواء في اطار الجالغيات البغدادية او التسجيلات الاسطوانية ويوم طواه الموت في مثل هذه الايام من عام ١٩٤٥ قال المتقدمون في السن من هواة المقام كتراث عراقي اصيل ان فن الغناء العراقي فقد اكبر اساتذته واقدر من استطاع التعبير عن معانيه في مجال الافراح والاحزان.

نوري السعيد يتوسط كبار مطربي المقام العراقي

رائداً للمقام

❖ولعل السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نكرس هذا الملف لرشيد القندرجي ان نتساءل في البداية من هو رشيد القندرجي

-هورشيد بن حبيب بن حسن ويكنى بابي حميد ولد في بغداد في محلة (العوينة) والعوينة سميت بهذا الاسم لتخصصها في زراعة العوين أي اللوبيا حيث كانت فيها فراغات استغلت كبساتين وجداول وتعتبر من احياء باب الشيخ وتوفي والده الذي كان يعمل خرازاً (أي بائعاً للخبز) وعمر رشيد لايتجاوز الثماني سنوات واشتغل في صغره عند محمد الافغاني كصانع للاحذية (قندرجي) في عقد النصارى فمن هنا جاء لقبه ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل في الجيش التركي ثم صار سراجاً في المعمل (العبخانة) الى نهاية الحرب العالمية الاولى.

اخذ المقام عن اشهر الاساتذة والقراء الذين عاصرهم خلال تلك الفترة الا ان استاذه الاول كان احمد زيدان .

❖يقول الحاج هاشم الرجب وهو احد تلامذة القندرجي : تأثر رشيد القندرجي باستاذه احمد زيدان واخذ عنه الشيء الكثير حتى عد من احسن تلاميذه وبما ان قرار صوت استاذه كان ضعيفاً ولان مقامات التحرير تحتاج الى قرار قوي وكان احمد لايتفنن بمقامات التحرير بل يركز جهوده على مقامات البدوة كالابراهيمي والمحمودي والطاهر ...الخ

ومن هذا بزغ نجم رشيد القندرجي في عقد المقامات العالية عن استاذه ومقامات التحرير من باقي اسطوانات بغداد حين ذاك ...

تفرغ رشيد لحفظ المقام واصبح الغناء مهنته ومورد عيشه الرئيسي اذ ليس له أي عمل اخر عدا مهنة الغناء لذلك نبغ في حفظه وادائه ببراعة فكان خير تلميذ لاحسن استاذ.

سجل رشيد جميع المقامات الرئيسية على الاسطوانات عدا الحسيني والبنجكاه والبهيرزاوي.

وعند افتتاح دار الاذاعة العراقية في الاول من تموز عام ١٩٣٦ في عهد وزارة ياسين الهاشمي الثانية عين رشيد خبير للمقام العراقي وقد قدم العديد من الحفلات الغنائية الى يوم وفاته.

كان ذكياً يحتفظ بذاكرة قوية حاضر البديهة مجاملاً حسن المعاشرة متواضعاً سألته ذات مرة عن استاذه أحمد فقال(احمد بيدر وانا اخذت حفنة) .

مجالس القيصرية وكهوة الشط

❖حين سألت الشيخ جلال الحنفي وهو صديق شخصي لرشيد القندرجي عن ذكرياته عنه استعاد اكثر من صورة ظلت عالقة بذهنه حتيالان عن رشيد تلميذ احمد زيدان المغني البغدادي الذي كان صاحب مدرسة ذائعة السيط في بغداد وكيف تعلق بطريقة ابن زيدان غير واحد من المغنين كعباس بن كنبير والحاج جميل البغدادي الذي رغم خبرته الواسعة في دقائق المقام العراقي واستيعاب مفرداته الا ان عطائه الغنائي ظل محدوداً ليبقى رشيد القندرجي الوحيد الذي يمتلك امكانيات واسعة وعطاءغزير لم يغب يوماً عن اسماء المستمعين في بغداد ثم يتذكر الشيخ الحنفي التي كان رشيد يتردد عليها ومجالسه في القيصرية الى جوار خان مرجان وكهوة الشط وغيرها من المحلات الاخرى..

وتبقى النقطة الاهم ماسر خلاف رشيد القندرجي مع الاستاذ محمد القبنجي يقول الشيخ الحنفي :كان رشيد سلس القياد اليفاً بسيطاً لم اره متعنتاً يوماً ما الى في موقف يتطلب منه الاعتراف بالاستاذ القبنجي او الالتقاء به تحت سقف واحد واني بذلت جهداً كثيراً استمر زمناً غير قصير من اجل جمعهما في مكان واحد فلم افلح في ذلك وكان موقف القبنجي من هذه الناحية لايقل امتناعاً عن موقف صاحبه الذي لم يصاحبه ..

وفي الثلاثينيات كنت احمل معي الة تصوير ابتدائية وكنت اجول بها على المغنين والموسيقيين وقراء المقام العراقي لالتقط لهم صورهم فكانت صور رشيد القندرجي تتعرض عندي للفشل الذريع المتكرر ولقد لاحقت رشيد القندرجي ملاحقة مستمرة وكنت اخذه الى مسجد حسب الله الذي ال الى جزء من نهر الشارع بعد شق شارع الجمهوري وهو يقرب تماما من مصرف الرافدين في الشورجة..

وكان امام المسجد الاستاذ عبد الله الشيخلي .

وفي مسجد حسب الله كان رشيد يعرض لنا نماذج من تسبيحات التمجيد الذي هو ضرب من الغناء الصوفي الذي كاد ينقرض ويندثر ..

وفي المسجد تم لي التقاط صورا كثيرة لغير واحد من رجال المقام العراقي حيث كنت اتخذ من هذا المسجد متردد لي في الثلاثينيات قبل الشخوص الى مصر .

وكنت اللاحق رشيد القندرجي فاذهب الى بيته فاخرجه منه لاتخير له موقفا في عرض الطريق لالتقاط صورة له قد تكون اجلى من الاخرى الفاشلة غير ان الفشل كان يلاحق صور الرجل على كامرتي الضئيلة الشان والرخيصة الثمن .

لم ارى ارق من رشيد نفسا ولا اسلس قلباً ولااطيب سريرة .. انه كان انسانا ذا سجية كسجية الطفل البريء حبيبا الى الناس جميعا .

واذا كان الشيخ جلال الحنفي قد فشل في الجمع بين مدرستين في الغناء العراقي يمثلهما انذاك المرحوم القندرجي والاستاذ القبانجي ترى ماذا يقول الاخير عن خصمه وبعد مرور ٣٤ سنة على رحيله .

وقال لي القبانجي:

– حين سمعت المرحوم رشيد القندرجي لاول مرة يغني في مقهى العيشة التي كانت ملتقى الفنانين في الثلاثينيات لم اكن مشهورا انذاك لكنني اخذت عليه تحفظه في الغناء . والذي تسمعه اليوم منه تجده يكرره غدا دون تغير او تبديل في الانغام شانه في ذلك شان المغنيين الكلاسيكيين الذين كانوا يعتبرون المقام قالبا معينا لايمكن تغييره ، مع ذلك كان له مؤيدون والكثير من المعجبين ومازالوا يذكرونه حتى الان . ومن هنا نشا الخلاف بيننا انا ادعوا للتطوير شريطة عدم خروج المغني عن الجوهر وهو يلتزم الكلاسيكية واليوم وبعد ٣٤ سنة على رحيل المرحوم القندرجي اقول ان خلافنا لم يكن شخصيا بل كان فنيا .

وعند افتتاح دار الاذاعة العراقية في الاول من تموز عام ١٩٣٦ في عهد وزارة ياسين الهاشمي الثانية عين رشيد خبير للمقام العراقي

واذكر انني عندما غنيت حجاز كاركرد والنهاوند وسمعني شريد لم يكن يعرف النهاوند او على اية علم به وبدا القندرجي يشيع بين الناس على ان القبنجي بدا يغني حسب مزاجه مقامات ليس لها وجود ولم نسمعها من اساتذتنا اخيرا :انني احترم الاستاذ القندرجي واقدره حيث تبنيت خلال تلك الفترة تعينه خبيرا في الاذاعة.

اكبر الاساتذة والرائد المجدد

❖وضمن هذا السياق يبقى الخلاف بين القندرجي والقبانجي يحتاج الى المزيد من الدراسة والتدقيق فاذا كان الاول عد انذاك من اكبر اساتذة المقام برأي المتقدمين بالسن الا ان الثاني أي القبانجي كان يمثل التيار المعاكس ولدى الشباب فهو الرائد المجدد في الاداء وفي تطويعه الالحان العصرية المتحررة من تقاليد ورسوم ومقدمات قراء المقام على الطريقة القديمة وتوظيف كل ذلك في حركة وتقدم المقام العراقي.

❖ومن وجهة نظر الصحفي الراحل عبد القادر البراك الذي عاصر وعرف الاثنين معاً

-ان عدد المغنين الذين كانوا يجرون على طريقة القندرجي يوم ذاك قليل بل وان اكثرهم كان مقلداً لهم وان لم يختلفوا عنه في تشويه نصوص الشعر العربي الفصيح فعبد القادر حسون مثلاً كان من احسن مقلدي القندرجي في معظم مقاماته كاالمنصوري والبجنكاه والسيكاه والمخالف والابراهيمي وان كان لايستطيع اداء فصوله الكاملة ونجم الشيخلي بالرغم من حلاوة صوته وعلو طبقاته كان لايجيد الا بعض المقامات وبصورة خاصة تلك التي يترنن بها مقرؤا المقام المواليد ولم اسمع له مقاما من المقامات الطويلة الدالة على طول باعه وما يقال عن الشيخلي وعبد القادر حسون يصح قوله على احمد موسى الذي كان يجيد اداء (الحديدي والصبى والمدمي) فقط ولقد تعرفت على القندرجي في سرداب جريدة العرا ق

رشيد القندرجي

عام ١٩٤٢ حيث كان يتردد لزيارة بعض اصدقائه من محرري الجريدة وكان يلبي دعوتهم بقراءة المقامات التي كان يودون الاستماع اليها منه .

واخيراً سيظل شيوخ بغداد والمخضرمون فيها يستذكرون فيها رشيد القندرجي في كل سنة وعندما يحل شهر رمضان بالذات حيث كان يقيم حفلاته الغنائية مساء كل يوم في مقهى الشابندر قرب المحاكم.

سعيد الحظ لانني رايته يغني

قال المرحوم عبد القادر البراك تعرف على القندرجي في سرداب جريدة العراق ويكمل الحديث الزميل صادق الازدي عندما يروي لنا جانبا من اهتمامات القندرجي تعرفت على رشيد القندرجي في شعر مايس عام ١٩٤١ وهو الشهر الذي قامت في بدابته الحرب بيننا وبين بريطانيا وقد اسهمت ايام تلك الحرب بتحرير جريدة يومية مسائية كان يصدرها المرحوم عبد الله حسن وكانت الاعداد التي صدرت منها خلال مايس هي اخر ما صدر منها طوال مدة الحرب العالمية الثانية فقد اعتقل صاحبها في الفاو والغي امتياز جريدته ثم استئناف اصدارها .بعد ان وضعت الحرب اوزارها . وكان احد اصحاب مطبعة الرشيد التي تطبع النهار على مكانتها من قراء المقام العراقي وعوو المرحوم محمد سعيد الذي استقل فيما بعد مازالت قائمة حتى يومنا هذا وهي مطبعة اسعد . وكان محمد سعيد هذا من اصدقاء المرحوم رشيد القندرجي بحكم كانوا اول من عشاق المقام ومن حفظته ولكونهما هو والقندرجي من ابناء منطقة بغدادية واحدة وكان رشيد يزور مطبعة الرشيد في معظم ايام الاسبوع وكان يرتدي ملابس العصرية ويضع السدارة على راسه وهو ممتلى الجسم قوي البنية رغم كونه قدتجاوز الخمسين من العمر

وعندما كان يجلس معي في غرفة الادارة في المطبعة كان يسالني قائلا

– ما هي الاخبار الحرب يا صديقي فكنت اروي له الانباء التي سمعتها عن طريق الاذاعات العربية او التي قراءتها في جرائد الصباح في ذلك اليوم وكنت احسبه غير معني بمتابعة الاذاعات وانه يعزف عن قراءة الجرائد ولم افطن الى انه لم يحسن القراءة والكتابة حتى قال لي ذات يوم بعد ان فرغت من تقديم تقريري الاخباري قال لي :ياصديقي لماذا لاتقوم دار الاذاعة بقراءة الانباء علينا بمثل الطريقة التي ترويها انت لي ويقصد اللهجة البغدادية الشعبية . احب ان اشير الى ان القندرجي لم يتزوج وقد امتد العمر بامه التي كان يحبها .فظل يرعاها حتى توفيت قبل وفاته بقليل وكانت سعيدة اللحظة لانني سرت واياه في بيت صديق لي وله فانطلق يغني ويرقص ثم ذهب الى بيته الذي يعيش فيه وحيد وهناك لفظ انفاسه اخيرا وكانت وفاته يوم ٨ اذار ١٩٤٥ – ويقول اين تكمن براعة ؟

– من المعروف لدى جميع ارباب الفن المقام ومتذوقيه ان على راس قائمة مطربي مقامات باستثناء المطرب العراقي هو محمد القبنجي الذي استطاعوا ان يحددوا هذه المقامات في هذه المقامات ويضيفوها اليه شيء كثيرا لتتحول الى فن حلو وممتع هو الفنان رشيد القندرجي الذي ابتكر العديد من القطع الغنائية واضافها الى المقامات كما جدد في بعضها الاخر لانقول هذا كلام جزافا لو لم نكن قد استمعنا الى مقامات القندرجي واستمتعنا بها خصوصا تلك التي مازالت محفوظة لدى محبي فنه ومنهم السيد عبود محمد فرج صاحب المقهى المجاور لمدرسة المستنصرية .

جسور بغداد تروي اسرار المدينة

جمال حيدر

يتوشح دجلة مع بغداد باواصر نسجتها اصابع الزمن وشهدت عليها عيون التاريخ رغم انحسار الدلالات الجمالية بين المدينة والنهر نتيجة البناء الفوضوي الذي اخل بعلاقة بغداد مع دجلة الامر الذي انحسرت معه العمارة التي تستفيد مع وضوح ضفاف النهر على مسافات طويلة من المدينة ما ادى الى غياب كامل لمعنى تلك العلاقة الازلية اذ ثمة استغلال سيئ للنهر وعلاقته بالمدينة غير صحية فدجلة هو شريان بغداد وهويتها وصمام امانها والمحافظ على اصالتها لكنه منزو تماما عن البغداديين في امكنة عدة نتيجة التخطيط السيئ الذي ركن النهر جانبا. ثمة جسر يمتد دائما بين ضفتي النهر والجسور البغدادية هي الوحيدة التي تحدد معالم الطرق العابرة للنهر وتوشح طرقي المدينة الكرخ والرصافة. الجسر الاول كان خشبيا ويربط بين الاعظمية والكاظمية اقيم على صف طويل من الزوارق المتارجحة من تموجات النهر. اذ كانت تجرفه بعيدا لينطلق البغداديون في كرنفال احتفالي بقرع الطبول حتى يعود الجسر الى وضعه. دام هذا الجسر حتى ايام الوالي نامق باشا وشيد على انقاضه جسر حديد اقامته قوات الاحتلال البريطاني لعبور الامدادات الى منطقة العطيفية. وظلت بغداد شحيحة الجسور حتى العام ١٨٨٩ حيث شيد اول جسر يستند الى عوامات خشبية واطلقت عليه تسمية كرارة شيده الوالي مصطفى عاصم باشا الى جانب جسر الخر الذي افتتحه الوالي عطا باشا في العام ١٨٩٨ واطلق عليه اسم الحميدي نسبة الى السلطان العثماني عبد الحميد وقد أزيل هذا الجسر وشيد جسر حديد بدلا منه ازيل هو الاخر فيما بعد مثلت اجساد الزوارق والسفن الطافية الصلة الاهم في ربط جانب الرصافة مع الكرخ في بغداد .. الخليفة ابو جعفر المنصور كان قد وشج الضفتين بجسرين كبيرين هولاكو هو الاخر ربط بين ضفتي المدينة حين احتلها بجسرين من السفن احدهما في اعلى المدينة والاخر في اسفلها.

في العام ١٩٥٦ افتتح الوصي عبد الاله جسر الملكة عالية . يذكر ان الوصي هبط فوق الجسر بطائرة عمودية وهي الاولى التي تهبط على جسر في بغداذ وقبل افتتاح جسر الملكة عالية.. افتتح جسر الاحرار الذي سمي انذاك بجسر مود قائد الحملة العسكرية البريطانية لاحتلال العراق ثم جسر الملك فيصل وقبله جسر الشهداء الذي سمي بالجسر القديم ثم جسر كوتا والجسر المعلق وهو من الجسور الحديثة نسبيا في بغداد افتتح في العام ١٩٥٩ وشيد على اثر جسر الجمهورية. وتوالت الجسور الممتدة على دجلة لتحتضن ضفتي المدينة ويصل عددها الى ١٢ جسرا لكن جسور بغداد لها وقع اخر في الذاكرة الشعبية وان هي تجاوزت الثمانية سيحل الشؤم على المدينة. احساس شعبي متوجس يحذر من العواقب .تجاوز عدد الجسور في بغداد بالعقود الاخيرة الى اكثر من ثمانية. غير ان هاجس الرعب ظل جاثما في قلوب الناس حافرا في ذاكرتهم تلك التعويذة البسيطة ليترجم الخوف دلالته على صفحة الحياة البغدادية في مطلع التسعينيات واواسطها حتى مطلع الالفية الثالثة حيث تعرضت بغداد لموجات قصف متواصلة وكانت الجسورهي ضحيتها الاولى.

شرايع دجلة هي رئة المدينة واثير حياتها ومهابط نذورها وهي فسحة تنسل من حواف البيوت المطلة على حواف النهر وتعتبر خصوصية بغدادية تبدأ من الباب الشرقي جنوبا حتى شريعة نجيب باشا شمالا وتنحصر اهمية شريعة الباب الشرقي في سقي الحيوانات ثم تاتي شريعة السنك المحاذية لشريعة المربعة المقابلة لمقهى حمادي ثم شريعة سيد سلطان علي المزدحمة صيفا كونها مركزا لتعليم السباحة وملتقى السائقين قبل بدء مؤسسة اسالة الماء عملها في بغداد اذ كانت تمثل الميناء الحقيقي لبغداد القديمة. وتواصل الشرايع مسيرتها في اتجاه الشمال حيث شريعة سبع ابكار التي كانت تعرف بشريعة بيت الباجه جي قبل تشييد جسر الاحرار وذلك لوجود قصور عائلة الباجه جي المشرفة على نهر دجلة تاتي بعدها شريعة خان التمر التي عرفت بشريعة الوالي بعدما اقام بالقرب منها احد ولاة بغداد. وتعقبها شريعة راس القرية المعروفة بشريعة بيت دلة المشهورة ببيع اسماك الزينة ثم شريعة المحكمة التي استخدمت لتفريغ بالات الصوف الواردة من المحافظات وتمتد شمالا شريعة المصبغة المجاورة لعمارة الدفتر دار ثم شريعة راس الجسر التي تتصف باكثر الشرايع ازدحاما لاحتوائها سلما واسعا يصل الى القوارب الخشبية الصغيرة المتجولة بين ضفتي النهر تاركة خلفها الموجات الصغيرة العابثة.

في جانب الكرخ من بغداد تمتد الشرايع ولعل من اهمها شريعة خضر الياس وشريعة جامع القمرية وشريعة باب السيف وشريعة النواب وثمة شرايع خاصة بالقصور والمنازل المشرفة على النهر منها : شريعة النقيب وشريعة منزل المناحيم دانيال وشريعة القنصلية البريطانية وشريعة منزل الحاكم العسكري المقابل لبناية حسو في شارع الرشيد.

فيضانات :

بورصة الموت والتشرد ترتفع اسهمها في بغداد اثر موجات الفيضانات وارتفع منسوب نهر دجلة المكتظ بجثث الغرقى والمتميز بالكوارث الطبيعية وفيضانات مدمرة حاصرت بغداد بتوتر يصعب تصديقه . سبعة عشر فيضانا اولها في العام ١٣٥٦ واخرها في العام ١٩٥٤ ، الرحالة الانكليزي جيمس ريموند دون في كتابه رحلة الى بغداد في عهد الوالي داود باشا والذي كتبه خلال زيارته الى بغداد في العام ١٨٣٤ والذي طوق المدينة واندفع يهدد جبروتها حين بدات مياه دجلة في الارتفاع في اليوم الثاني عشر من نيسان من تلك السنة . في الايام القلائل التي سبقت ذلك هبطت امطار غزيرة وظل الجو داكنا ملبداً بالغيوم بحيث اصبحت الشوارع وهي غير معبدة مليئة بالاوحال واصبح السير فيها مستحيلا وفي ليلة العشرين من الشهر كان حوض النهر ممتلئاً بالماء ما ادى الى تهدم ضفاف النهر وطغى الماء على القسم الكبير من المدينة جارفا اكثر من خمسة عشر الفا من السكان بينهم العديد من المصابين بالطاعون من مختلف الاعمار. حركة دوران الارواح الغامضة في نهر دجلة تسمعها بغداد مليا من اعوام متعاقبة فمياه النهر تفجرها الامطار لتندفع نحو المجهول مهددة المدينة وتذيقها مر الهوان . فيضان العام ١٩١٤ بلور طلاسم النهر العجيبة حين كانت بغداد مشحونة باجواء الحرب العالمية الاولى ارتفع منسوب النهر جراء الامطار الغزيرة ليصب في جريان لم تشهده بغداد من قبل. الحكومة تلقت برقيات من الموصل تنبئ بالمطر الكثيف وارتفاع مناسيب دجلة وان الخطر المندرس تحت الماء يخطو نحو العاصمة بغداد . ولم تعر الحكومة كعادتها أي اهتمام بالامر وفي عتمة ليلة ٢٩ تشرين الثاني تدفقت المياه بسرعة عجيبة واحاطت ببغداد التي مالبثت ان اخترقتها من باب الشيخ ومقبرة الشيخ عمر. لم تستكن مياه دجلة لم تهمد حركتها لتمضي تدق ابواب الاحياء البغدادية الاخرى وتوحد الجميع تحت لائحة التشرد والخراب .. الفناهرة والسنك المربعة والعوينة وقهوة شكر وفضوة عرب والكولات وبني سعيد طاطران زين العابدين والشيخ سراج الدين فرج الله والخالدية والجوبة والعزة وخان لاوند. وقد تغنى البغداديون على مر العصور بنهر دجلة وضفاف موجاته واعتبر متعة السمر قرب ضفاف النهر لاتعادلها متعة اخرى ومن الاغاني الذائعة الشهرة التي تتغزل بضفاف دجلة ..

على شواطىء دجلة مر.. والعشرات غيرها من الاغاني المشهورة التي ظلت راسخة في الذاكرة الجمعية .. كذلك تغنوا بالجسور الممتدة بين ضفاف النهر حيث تردد الاغاني الشهيرة بانقطاع جسر الحديد لكثرة مرور العشاق عليه لرؤية معشوقاتهم ..

الشرائع الاخرى نالت نصيبا من شهرة الاغاني خصوصا شريعة النواب ..

شموع الخضر ..

وثمة طقس يشهد دجلة ايام محددة من كل عام حيث تطفو الواح الخشب المحملة بالشموع الموقدة على صفحة من مياه النهر في انتظار المراد من الخضر. امهات الغرقى لهن نصيبهن من النهر اذ يجلسن على ضفافه ساعات طوالا في انتظار الغائب. الذي عسى ان يأتي من عباب الماء حتى لو كان جثة طافية .

جسر الجمهورية عام ١٩٥٧